من الحوادث الأدبية

# يهرب من الحج

## للاستاذ محمد سيد كيلاني

لما عزم الخديو عباس على أداء فريضة الحج في شتاء سنة ١٩٠٩ قرر أن يصطحب معه فيمن يصطحبه من خاصته شاعره الكبير أحمد شوقي. ولكن الشاعر كان في سريرته لا يرغب في أداء هذه الفريضة المقدسة ولم يستطع أن يصرح للخديو بذلك. فتظاهر بالموافقة وركب القطار مع أفراد الحاشية حتى إذا وصل الركب المالي إلى بنها غادر شوقي القطار خفية وانسل من بين الحاضرين دون أن يشعر به أحد؛ وذهب إلى منزل أحد أصدقائه بنها وقضى فيه مدة من الزمن ثم رجع إلى القاهرة. وأخذ الخديو وأفراد حاشيته يتفقدون شوقيا ولكن على غير جدوى. فلما رجع الخديوي من الحجاز وسأله عن السر في ذلك أجاب: كل شيء إلا ركوب الجمال يا أفندينا. وهذا عذر ضعيف يدل على استهتاره بأداء الفرائض الدينية التي من بينها الحج. ولم يكن شوقي أكثر ترفا من بقية الحاشية. فإذا كان الخديو عباس تحمل مشاق السفر فكيف عجز عنها شوقي؟ بل إذا كانت أم المحسنين ومعها وصيفاتها تحملت مشاق السفر فكيف عجز عنها شوقي؟ الحق أن تعليل هربه من أداء فريضة يصبو إليها كل مسلم ومسلمة لا يدل على شيء سوى استهانة بأمر الحج. وشوقي كان إذ ذاك في ريعان شبابه تلوح عليه نضرة النعيم. وكان يقيم في داره بالمطرية الحفلات الساهرة الراقصة حيث الكاس والطاس وغير ذلك مما لا داعي لذكره. ولم يقعده عن هذه الحفلات ضعف فكيف قعد عن أداء تلك الفريضة؟ وبأي عذر اعتذر؟ وما قيمة أعذاره من الصحة؟ قال للخديو: كل شيء إلا ظهور الجمال يا أفندينا. وهذا ليس بعذر مقبول لأننا نعلم أن الشاعر كان يركب ظهور الخيل في القاهرة ويقطع بها مسافات طوالا. ثم إن سكة حديد الحجاز كانت قد افتتحت في ذلك الوقت وكان الناس يستقلون قطاراتها إلى المدينة. فلم تكن المسافات التي كان من المقرر أن يقطعها الشاعر بالجمال سوى تلك التي بين جدة ومكة والمدينة. ثم إن الركب الخديوي كانت به وسائل الراحة التامة. فنرى من ذلك أن هذا العذر لا يصح أن يقوم دليلا على عجز الشاعر عن تأدية الفريضة.

وهو يتمنى أن تكون هناك سيارة أو طائرة لتقرب إليه البعيد وتسهل أمامه السبيل. قال:

ويارب هل سيارة أو مطارة ... فيدنو بعيد البيد والفلوات

ولكنه هو القائل قبل ذلك في الطائرة «أركب الليث ولا أركبها» أما السيارات فقد أدرك عصرها. ولكنه لم يستقلها لأداء الفريضة.

والآن بعد أن ناقشنا هذه الأعذار وبينا أنها متكلفة وأن الشاعر أتى بها ليبرر استهانته بالحج، ننتقل إلى أبيات من قصيدته التي مدح بها الخديو عباسا عقب عودته من الحجاز والتي مطلعها

إلى عرفات الله يا ابن محمد ... عليك سلام الله في عرفات

أما الأبيات التي نريد أن نقف عندها فهي

ويارب هل تغني عن المبدحجة ... وفي العمر ما فيه من الهفوات

وتشهد ما آذيت نفسا ولم أضر ... ولم أبغ في جهري ولا خطراتي

ولا غلبتني شقوة أو سعادة ... على حكمة أتيتني وأناة

ولا حال إلا الخير بين سرائري ... لدى سدة خيرية الرغبات

ولا بت إلا كابن مريم مشفقا ... على حسدي ستغفرا لعداتي

ولا حلت نفس هوى لبلادها ... كنفسي في فعلي وفي نفثاتي

وإني ولا من عليك بطاعة ... أجل وأغلى في الفروض زكاتي

أبالغ فيها وهي عدل ورحمة ... ويتركها النساك في الخلوات

هذه الأبيات وليدة هربه من الذهاب إلى الحجاز. وفيها يبرر عزوفه عن أداء فريضة الحج بمبررات واهية ضعيفة لا تستقيم مع أحكام الدين الحنيف ولا تنهض حجة أمام رجل حريص على أركان الإسلام، محترم لشعائره التي منها الحج. فلا طيبة النفس ولا حب الوطن، ولا الإشفاق على حساده ولا الزكاة ولا أي شيء مما ذكره يغني عن الحج ويقوم مقامه. فشوقي في هذه الأبيات يستوحي العقل ويحتكم إليه ضاربا بأحكام الشريعة الغراء عرض الحائط.

والشيء الذي لا مراء فيه أن شوقيا كان مهملا لفرائض الدين